سرديّة التذكر ولذّة النسيان، قراءة تأويلية في رواية "بأيّ ذنب رَحلَتْ ؟" لمحمد المعزوز.

The narration of memory and the thrill of forgetfulness, an interpretative reading of the novel, "With what sin did she go?" Muhammad Al-Mazuz

آسيا قادري *

تاريخ الإرسال: 2021/03/30	تاريخ القبول: 2021/12/27	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

يتشكل السرد في رواية " بأيّ ذنب رَحلَتْ ؟" لمحمد المعزوز من طبقات كثيفة من الذاكرة والنسيان، الوجود والعدم، التلاشي والتجلي... ليقحم القارئ في متاهات حكي لا تنتهي، تتأسس على تجربة داخل لغة استثنائية تتغذى من واقع مؤلم ومتخيّل إبداعيّ، لتمارس طقوس كتابة روائيّة مختلفة تكسر نمطيّة القراءة لدى القارئ، وتحرضه على تبني أفق جديد للتلقي، أفق يستوعب فضاء المتخيل في بعده الاستطرادي الاسترجاعي في عملية سردية عكسية، يتموضع فيها القارئ موضعا متفاعلا يكشف به عن البناء النصي، وعن تموضعات النص السردية في تشكيل الذات الإنسانية الباحثة عن حقيقة الذاكرة والنسيان، الموت والحياة، البدايات والنهايات،...فهذه الثنائيات الضدية التي لا تنضب، تقتحم النص بكل لبس وتدعو القارئ إلى ممارسة التأويل داخل العالم الدّلالي للرّواية، حتّى يتسنّى له استيعاب تضافر المتناقضات، وبناء المعنى النصي من وحي النص، وفق رؤية تأويليّة تكشف عن هوية النص السرديّة.

الكلمات المفتاحية: سرد، ذاكرة، نسيان، تأويل، فعل القراءة.

Abstract:

The narration, formed in the novel "With what sin did she go?", by Muhammad Al-Mazuz, is made up of dense layers of memory and forgetfulness, presence and non-existence, disappearance and manifestation, so that the reader can enter the labyrinth of an infinite narration, based on experience within an exceptional language that feeds on painful actuality and

* جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، الجزائر، kadriassia2017@gmail.com

a creative imagination, to practise different rituals of ritual writing which break the typology of reading in the reader and encourage him to adopt a new horizon to receive, a horizon which welcomes the space imagined in its retrospective dimension in an inverted narrative process, in which the reader is positioned interactively revealing the textual structure, and the narratives of the narrative text in the formation of the human soul to the search for the truth of memory and oblivion, of death and of life, of beginnings and ends. These inexhaustible antipodal dualities completely invade the text and invite the reader to practise interpretation in the semantic world of the novel so that it can absorb the synergies of contradictions and build the textual meaning from the inspiration of the text, according to an interpretative vision that reveals the narrative identity of text

Key words**: narration, memory, forgetting, interpretation, act of reading.**

*** *** ***

المؤلف المرسل: آسيا قادري، kadriassia2017@gmail.com

1. فاتحة التأويل:

يقترن فعل التّأويل وأدواته وآلياته بالقراءة، فهو مفهوم إجرائي[1] لا يتحقّق إلّا إذا حدثت مواجهة نصيّة بين النص وقارئه، وهو -أي التّأويل- لا يعتمد على معاول وإجراءات نقدية جاهزة، وإن كانت تتضافر في ولادته عناصر شتى، ومكونات مختلفة كالنص والقارئ.. تساهم في إنجاز لحظاته الهرمينوطيقية؛ إلّا أنه ((إجراء مفتوح لا تخزنه أية رؤية))[2] مسبقة، فالتأويل ليس مقولة جاهزة بل هو ممارسة تظهر مع التعمّق في مستويات القراءة؛ ((لأنّ فعل التأويل ليس منهجا متعاليا أو معطى قبليا جاهزا يسلّط سيف أحكامه على كل معرفة، بل إنّ نظرته/ تأويله/ فهمه هي أوّلا وقبل كل شيء، تأويل لذاته عبر مسارات تحوّله في الوجود، ضمن سياق انتظامه فكرة فمعرفة ففهما فتأويلا))[3]، وانفلاته من الجاهزيّة هو ما يجعله قادرا على استيعاب واسع لإجراءات نقديّة قرائيّة مختلفة من منابعها النظريّة، فهو يضع نفسه في سيرورة المعاودة والمراجعة ما يجعل من هويته مفتوحة على ديمومة التشكّل؛ فالتّأويل بهكذا معنى يُعيد

اكتشاف الأشياء وبنائها بالتّفاعل و الحوار معها، والاندماج فيها، ويعلن عن بدايات جديدة لها. بهذه الرّؤية فهو أصل المناهج كلّها، ولا يسعه أن يبقى كذلك إلّا إذا وسع آفاق مجاله[4].

من أجل ذلك فالتّأويل لا يركن إلى آليات إجرائية محدّدة سلفا، بل إنّ الإبداع النصي هو الّذي يستدعي عدّته الإجرائيّة وليس العكس، فالمقاربة التّأويليّة تتيح للبحث التّعامل مع النّص وفق إستراتيجية قرائيّة أبعد، ورؤية أوسع من تلك الّتي تحدّد مقولاتها وعدّتها المنهجيّة سلفا؛ ذلك أنّ التّأويل همّه أن يفهم النصوص وأن يقرأ النص بما هو كذلك، وبواسطة معاول إجرائيّة لا يكشف عنها إلا أثناء التفاعل، وبواسطتها يشكل فهما جديدا احتماليا للنص، ولكن ليس بمنأى عن الغايات التي يجري إليها النص، وهذا هو الفرق بين أن نستعمل النص لغايات خارجية، وبين أن نؤوّله ونُنصِت لما قاله في ذاته بعيدا عن القوالب الجاهزة، فماذا يقدم التأويل للنص السردي؟ وما هي الإمكانات أو المعاول الإجرائية التي يتيحها التأويل لقراءة نص يسكنه الاختلاف؟ وكيف يتم تأويله؟ وكيف يحدث التفاعل بين القارئ والنص؟

2. اشتغال التأويل من سؤال العنوان إلى الامتداد النصي:

يتهيأ وجود النص إبداعيا في فضاء القراءة والتأويل بعنوان يحدد هويته السردية، ويدفع قارئه إلى تحديد التواصل بين قراءة تعتد بالمشاركة النصية، أو قراءة فضولية تنحرف عن مسارات الانجذاب؛ فهو ((العتبة التي تشهد عادة مفاوضات القبول والرفض بين النص والقارئ فإما عشق ينبجس -وتقع لذّة القراءة- وإما نكوص، ليتسيّد الجفاء مشهدية العلاقة))[5]، فإذا كان العنوان إستراتيجية كتابية، وآخر ما يكتب بالنسبة للمبدع، فإنه أول ما يصادفه القارئ وهو في طريقه لترصد الحمولة الدلالية للنص، إنه ((يأتي دائما متقدما ليأتي بعده النص فيسكنه، ويأتي بعدهما القارئ فيجيبهما، ويرفعهما إلى مستوى العمل الأدبي المتفرد الذي بإمكانه عبر لقاء بينه

وبين القارئ، أن ينتج شيئا آخر يتجاوزه))[6]. هكذا يغدو العنوان موضوعا للتأويل، ومفتاحا تأويليا للنص الذي يعنونه؛ وإن كان من الممكن أن يكون خادعا ومراوغا وسرابيا، عندما يبنى على الإثارة والإغراء[7]، مثلما نجد لدى العنوان الذي نحن بصدد محاورته "بأي ذنب رحلت؟" ورغم ذلك فليس هناك أهمّ من الوقوف عنده لاكتشاف معالم النص، والولوج داخله؛ فهو((يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته))[8]. فكيف يتحقق العنوان قراءة وتأويلا؟ وما هي تأثيراته النصية في بناء الدلالة؟

هذا ما يجعل من قراءة العنوان هو اللحظة الأولى لقراءة نص رواية "بأي ذنب رحلت؟"، والكشف عما يحيل عليه من دلالات مكثّفة وإيحاءات عن النص، فالعنوان هو أول ما يبوح به النص لقارئه، وللبحث في دراسته نستعين بما اقترحه محمد مفتاح؛ حيث أكد أنّ لدراسة عنوان أي نص نسلك مسلكين أحدهما ينطلق من العنوان لفهم المتن النصي، والثاني من النص المدروس لتعرف دلالة عنوانه[9].

يتشكل عنوان النص "بأي ذنب رحلت؟"من بنية تركيبية لغوية استفهامية تحمل فاعلية الاستنكار والتعجب، في قوة انجازية للسؤال، الذي يخلق مساحات شاسعة للتأويل يؤسس بها التفاعل بين النص والقارئ جاعلا من عوالم العنوان أداة للكشف ومساءلة النص؛((فاختيار عنوان دون غيره له دلالاته ورهاناته، لذا يكون شبيها برحلة تتحمّل من دون تراجع أهوال ما تصادفه ويكون لها فيه ذلك المتاه السري والرائع في نفس الوقت))[10] فالعنوان "بأي ذنب رحلت؟" عندما تحرك بالسؤال، يكون قد وضع نفسه موضعا للسؤال أيضا كإمكانية تأويلية تعمل على توجيه القراءة نحو سبيل التواصل بفك الصمت الذي يتموقع في ثنايا الجملة الاستفهامية، فما قيمة السؤال؟ وماذا تعني ممارسته السردية؟

يعد العنوان بهذه الهيأة اللغوية انفتاحا تأويليا، يجري إلى تحقيق هوية قرائية ترحل بالنص من عالم السكون إلى عالم التحقق والحركة، فالسؤال الذي اقترن به

العنوان في تركيبته اللغوية يقود القارئ نحو تنشيط الفكر وتشغيله[11]للإحاطة بالإمكانات التأويلية التي ينفتح عليها العنوان، ذلك أن السؤال ليس من طبيعته أن يستمر بالجواب الذي ينغلق به وينتهي، وحتى يتملّص منه يقيم السؤال نوعا من العلاقة الغريبة مع الجواب التي تبلغ به مستوى من الانفتاح والحركة الحرّة[12]، تقود القارئ إلى ترصد حركية السؤال ضمنها ذلك ((أن السؤال يتوخى من الجواب ما هو غريب عنه، كما يريد في الوقت نفسه أن يظل قائما في الجواب كحركة يريد الجواب إيقافها ليخلد إلى الرّاحة. غير أنّ على الجواب عندما يجيب، أن يستعيد ماهية السؤال التي لا يذيبها ما يجيب عنه))[13]، وتلكم هي الغاية التي يجري إليها عنوان على شاكلة "بأي ذنب رحلت؟" فهو يتخلق ضمن معترك سردي بين العنوان والقارئ الذي يسعى لاهثا حول البحث عن جواب للعنوان، أو لسؤال يأبى أن يتواصل مع جوابه إلا في إطار علاقة استمرارية تضمن له البقاء، وتفرض على القارئ ترصد ترديداته النصية، وتحينه ضمن مسارات القراءة وفضاءات التأويل، فإذا كان السؤال هو الفضاء الذي لا يكتمل إلا عندما يفصح عن نقصه وعدم اكتماله[14]، فما هو دوره في العملية التأويلية؟

تعد المساءلة سمة مشتركة بين النص والقارئ والعالم؛ لأنّ هناك رابط جدلي قائم بين التساؤل كعلاقة تشكّلت بين النّص وعوالمه الممكنة انطلاقا من استيعابه للواقع وتشكيله بوساطة اللغة والمتخيل، تمثيلا لذلك يقول السارد: ((الكل يحاول أن يسأل، حتى الذي ليس من عادته السؤال، لأنه لا أحد يأتيه الجواب، ولا أحد يكف عن الغمغمة التي يحذوها الترقب))[15] فقد اتخذ النص من عوالمه السردية موقفا متسائلا متدّبرا مفكّرا يريد أن يتواصل مع الواقع في غيريته؛ أي في اختلافه مع ذاته المتأزمة لينشئ حوارا وتفاهما لا امتلاكا أو إقصاء ويتجه به إلى الانبعاث والانفتاح والتجديد؛ لأنّ أي نص إبداعي ((يأتي كإجابة عن سؤال وجودي أو معرفي معيّن يمثل سياق إنتاجه))[16]، فإذا كان التساؤل أداة إبداعية مع المبدع، فإنه إمكانية تأويلية مع القارئ الذي يشارك

النص في بناء معناه انطلاقا من استراتيجيات نصية يقترحها النص ويستجيب لها القارئ في توجيه لعملية القراءة التي لا تتم إلا بفضل تفعيل تأويل النص الذي يولد مع التساؤل ولا يبتعد عن الحيرة والارتباك[17] اللذان تثيرهما خصوصية الوجود السردي للواقع، لينمو التأويل بالاستمرار عندما تضع القراءة سلسلة من علامات الاستفهام[18] كلّما سعت إلى امتلاكه وتوسيعه عبر دلالات وجوده السردي. ((إن ما يجعل النص مفتوحا على كل ما هو غير متوقع من الأفاق هو ذاك السؤال الذي تطرحه الذات على جماليات السرد والكتابة عبر عوالم ممكنة ومتجددة في كل مرة من سياق إنتاجه ليندرج ضمن سياقات أخرى))[19] هي سياقات التلقي.

يتهيأ عنوان "بأيّ ذنب رَحلَتْ؟" ضمن مسار تأويلي تتمظهر فيه دلالات وإيحاءات عنوان مسكون بالسؤال، قد تتعدد تأويلاته بتعدد قرائه، وقد يستوعب تأويلات يحملها ويقبلها إلى حين، ولكن ينفي عن نفسه قطعية الجواب؛ لأنه نشاط نوعي يوجه قارئه نحو استحضار إمكانات تأويلية تتموقع بين مرجعية دينية غائبة تستحضر عن طريق السجلات النصية، وبين بنية لغوية استفهامية تحيل إلى حضور نص أدبي إبداعي يفرض على قارئه أن يرتد إليه، بحثا عن دلالات يتحقق فيها العنوان قراءة وتأويلا.

من أجل ذلك تبدو قراءة العنوان "بأيّ ذنب رَحلَتْ؟" على مستوى النص، والبحث عن رابط بينهما، امتدادا لاستراتيجيات نصية يملها النص على قارئه؛ لأن العنوان والنص كلاهما يشكلان بنية متكاملة للعمل الأدبي، وقد لا يفهم النص إلا من خلال ربطه بعنوانه، حتى يكون منطلقا لتفسيره أو التفسير به؛ بمعنى أن العنوان قد يكون مفسرا بالنص أو مفسرا له في آن معا، لتغدو العلاقة بينهما علاقة تكاملية تفاعلية[20]، تفرضها القراءة التأويلية كسبيل يتحقق به النص وجوديا،

يتجاوز العنوان "بأيّ ذنب رَحلَتْ؟" بنيته اللغوية التناصية ليؤسس علاقة نصية تواصلية تجمعه بالنص؛ تومئ وتشير إلى ذوات نصية ولدت من رحم النص

واتخذت من الرحيل سبيلا للنسيان تتملص به عن كل ذكرى ألم، إلى أن يغدو معها الرحيل هو الموت ذاته والموت((هو اللّحظة الّتي ينفلت فيها الفرد من كلّ سلطة))[21] ؛ فكل الذوات النصية التي ترفعت عن خزنها بالموت كانت تريد الانعتاق من ماض يفرض حضورا سلطويا ويشتت علاقتهم بالحاضر، ويبعثر تاريخهم لإعادة بناء ما يجب أن يكون، فالنص قد احتوى عنوانه على نحو تبرز دلالة متوارية خلف البنية اللغوية للعنوان، حتى يغدو حضور العنوان في النص حضورا تأويليا مشروطا بمدى انفتاح النص وتفاعل القارئ معه؛ لأنّ النص((لا يمكن أن يقدم المعنى هكذا جاهزا ونهائيا، فالنص لا يتحقق إلا بالقراءة وكلما كانت القراءة كان النص حتى يصير التواصل ممكننا بعمليات تفسيرية))[22] تمكن القارئ من العيش في كنف النص ومصاحبته في بناء دلالات تكون ثمرة التفاعل بين أفق القارئ وأفق النص فتتعدد دلالته بتعدد قراءه، مع انفلات المعنى، ويرجع واقع المعنى هذا إلى انفتاح النّص؛ ((فكل أثر فنّي حتى وإن كان مكتملا ومنغلقا من خلال اكتمال بنيته المضبوطة بدقة، هو أثر "مفتوح" على الأقل من خلال كونه يؤوَّل بطرق مختلفة، دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تختزل))[23]. وهذا ما يدعو إلى التساؤل على نحو يعتمد على فعل الشراكة النصية بين القارئ والنص والتأويل: فإذا كان النص قد احتوى العنوان في غيريته، فكيف يتحقق النص تأويليا؟ وكيف يتشكل النص بين ذوات نصية اتخذت من النسيان ملاذا وسبيلا لها، وبين ذاكرة نصية يزاحمها الماضي والحاضر في صراع يأبى أن يتحقق إلا وفق مسار تأويلي؟

3. تأويل ذاكرة النص بين التضاد والتكامل:

يتخلق نص "بأي ذنب رحلت؟" في خضم الانفتاح على أجناس أدبية مختلفة، كالشعر، والسيرة الذاتية،... وغير أدبية، كالتّاريخ، والسّياسة، والرسم والموسيقى، والفلسفة، ليؤسس ذاكرة نصية تكسر نمطية الكتابة الروائية، وتخرق أفقا للتلقي، يتعدد بها نصوصا وتتعدد به كتابة، و((ليس التعدد رقما، بل هو علاقة تحتكم على

تصور قائم على الاختلاف))[24] أساسه أن النص تجربة داخل اللغة والمتخيل ولا يمكن فصله عن هذه الثنائية، سواء أكان في طور إنجازه (كتابته)، أو في طور تحقيق وجوده (قراءة وتأويلا)، وباللغة -مثلما يقول سارد النص- : ((تستطيع أن تتحول، توا، من النقيض إلى النقيض، هي القدرة على نفي العالم أو تأكيده، وتبخس الإنسان أو إجلاله...(...) العالم لا يكتب اللغة، اللغة هي التي تكتب العالم، تصف الإنسان وتعبر عنه))[25]، بها ومنها يعلن نص "بأي ذنب رحلت؟" عن ذاكرة نصية تستعيد ذاته السردية من عالم النسيان، الذي فرض على واقع الشخصيات ضروبا من الاغتراب والألم والمعاناة... تحول به النص إلى أفق تأويل واقع مهزوز مهزوم يحتويه السرد، وترويه لغة سردية تتعمق بفعل التخييل في تفاصيل الماضي باسترجاعه، وبالاسترجاع إشكالات الحاضر القائمة على ماضي لا ينسى، فـ((استعمال اللّغة في حدّ ذاته تأويل،لأنّها تعبّر عن حقيقة خارجيّة يمكن إدراكها قبل التّعبير عنها))[26]، لأن الواقع الذي لفظ أنفاسه لغة وتأويلا قد وجد طريقه إلى النص عبر سجلاته.

تأسيسا على هذا المنحى التأويلي، فإنّ النّص يدخل في علاقة تصادم قوية مع الواقع إما بأن يؤكده أو يرفضه ليبلغ به مراتب التخييل والمعرفة بلغة فلسفية تأملية تجري إلى تحقيق خصوصية كتابية يتسيّد فيها النص -بما أنه كائن لغوي-، ويفرض على القارئ استراتيجيات نصية غايتها توزيع وترتيب وتنظيم العناصر الدلاليّة الممكنة داخل النسيج النّصي[27]، لكن هذا لا يعني أنّها تشكل المعنى بنفسها رغم أنّ وظيفتها البنائيّة تشكل مجموعة التأثيرات والتعليمات النصية لتوجيه القارئ أثناء بنائه للمعنى، ومنه فوظيفة تشكيل المعنى هي من مهام القارئ[28]، الذي يفعّل النص وفق استراتيجياته والتي تتيح له مصاحبة النص في غيريته، أي في خصوصيته وتفرده؛ لأن ((حقيقة المعنى التي يتعقبها الفهم ليست بالشيء المتجلي الذي ينتظر الآخر/المؤول أن يقبض عليه أو يزيده إيضاحا وتجلية، وإنّما هي، (...) توجد بين بداية مجهولة ولحظة متحولة في زمن غير قابلة للتحديد ومن ثم يصعب ضبط هذه الحقيقة فهما وتأويلا..))[29] ، لتبقى مهمة

القارئ -في ظل استحالة القبض على المعنى- هي العيش في كنف النص ومصاحبته والإنصات له، لعله يضفر ببعض الدلالة.

ترتسم ذاكرة نص "بأي ذنب رحلت؟" وفق مسارات سردية تتعدد بتعدد شخصيات النص مع أحداث تلتف حول زمن استرجاعي يتأرجح بين ماض يرفض الانزواء وحاضر يفرض إشكالاته، في تشكيلة سردية تؤسس لعلاقات جدلية بين ثنائية الذاكرة والنسيان، الوجود والعدم،...ليرتد فيها النص عن نمطية الكتابة التقليدية بوجود ضمير المتكلم/السارد يتكبد تجربة سرد الأحداث بناء على لغة فلسفية تؤسس لمفاهيم يتجلى فيها صراع الذاكرة والنسيان... على حد قول عبد الله_ الذي فقد زوجته راشيل بانتحارها بسبب البحث عن حقيقة الأشياء من حولها، وفقد ابنته راحيل وهي صغيرة، فعاش حياة كئيبة مثقلة بأحزانه، فكان السؤال الفلسفي عزاءه الوحيد _ يقول: ((تناغم مع التذكر المرير مهمها بخفوت: جربت دائما أن أنسى، فلم أستطع. ما هي هذه الكيمياء السرية التي تنتصر على النسيان... هذه المسماة بالتذكر؟ أواه ما أشقاني وأنا موزع ما بين ظلمات الماضي و مجهودات الحاضر! ..... لكن في هذا كله، أجد نفسي دائما شقيا أعيش حالات من التوتر المريع، متنقلا دون إرادة ما بين تيار التذكر المتوغل وتيار النسيان المحتضر.))[30] في خضم استحضار الماضي تفرض الذاكرة بثقلها حضورا استثنائيا تخرق فيه تاريخ شخصيات النص، التي تلوذ بدورها دوما إلى الاحتماء بالنسيان والالتفاف به قصد الابتعاد عما يكابد النفس ويرهقها، فتقترن به هروبا وأملا في محو ما يؤلمها، إلا أن الذاكرة لا تلبث إلا أن تستولي على الحاضر في استرجاع الذوات النصية لتاريخهم الذي لا ينسى، مثلما يقول السارد عن خالد _وهو شخصية تقاوم الذكرى بمحو تاريخها على أرض النسيان_: ((وفي لمحة بصر تبادر إلى ذهنه أن التذكر طريق إلى افتضاض بكارة النسيان، أو هو الأثر الذي يبث الحياة في بقايا التاريخ..))[31] فالنسيان ارتبط بالتذكر في علاقة صراع أفرزت فلسفة أعادت تشكيل

العلاقة، وطرحها وفق تجربة شخصيات النص التي تفردت برؤية عميقة من التذكر والنسيان، أساسها عدم قبول المعرفة الجاهزة، واستنباط معرفة قاعدتها طرح السؤال على تجربة التذكر واستحضار النسيان، بغية فهم العلاقة على نحو مغاير؛ لأن ((حقيقة/المعنى لا تعطى بل تبنى بوجاهة السؤال الذي يبقى، دائما وأبدا، بحثا عن معرفة/سؤال إلى ما لا نهاية من الأسئلة))[32]، التي تفجر علاقات يقترن بها السؤال بداية والجواب امتدادا.

بهكذا معنى تنتظم ذاكرة النص "بأي ذنب رحلت؟" وفق رؤية تأويلية نصية، تستدرج القارئ للدخول إلى عالم النص دخولا متوترا مندهشا، فيسكن إليه متصلا واصلا حلقاته بفلسفة الحياة التي تطلب منه العيش في كنف الاختلاف بحثا عن عالم أفضل، يحقق فيه تأويله للنص فهما وتفهما للذات والعالم والآخرين؛ لأن ((النص هو من يملك قرار نفسه، يبدي ما يشاء ويخفي ما يشاء، فتتعدد، إذ ذاك، القراءات والتأويلات، وتتداخل النصوص مشكلة نصا جامعا يلم شتاتها هو نص التأويل، الذي يعدّ بمثابة تأسيس لنمط جديد من الكتابة، إنها الكتابة المتشظية المناهضة للكلية والشمولية، الداعية إلى إنتاج التعدد، وإبداع كائن جديد))[33] هو نص القراءة، الذي يعيد اكتشافه القارئ في سياقات غير معلنة إلا بالمجابهة النصية التي تتيح للقارئ أن يتبحر في عالم النص لإنتاج دلالات احتمالية تحقق تواصلا مع الذات والعالم والآخرين إلى حين.

وفق نظام سردي خاص، يتفرد هذا النص في صياغة عوالمه المتخيلة المغرقة في فلسفة الحياة ورمزية الأشياء، بوتيرة تصاعدية ترهق القارئ وتقحمه في مشاركة النص بتجديد معارفه المكتسبة حتى يتسنى له التواصل معه في بعديه الرمزي والفلسفي، فالنص يفرض ممانعة شديدة التحصين بلغة سريالية يتفرد بها النص في خلق عوالم سردية لا تقبل التعريف إلا في ظل المشاركة النصية بين النص و القارئ؛ لأن المعاني

التي يتساءل عنها النص ويحاول أن يثير الجدل حولها، تترفع عن الاختزال في مقولات محددة أو تصنيفات جاهزة، لذلك نجد الشخصيات في حالة من التساؤل والاستفسار عن السير على خطية زمنية أرهقتهم، وأعيت تفكيرهم وانتهت بهم إلى طريق مظلم، يقول عبد الله :((نسأل دائما ونحن نكرر أين نمضي؟ فنسوى الذاكرة بالنسيان، ولا نسأل أبدا هل نحن حقا نمارس المضي وكيف مضينا؟ فنؤاخي الوجود والعدم))[34] في ظل تكاثف الأسئلة تتم العودة إلى الماضي واسترجاع أزمنة متناقضة لإعادة ترتيبها وفق حاضر يفرض إشكالاته، مثلما نقرأ عن خالد: ((قرر أن يرجئ هذه الأسئلة، وأن يعيرها إلى الماضي، لكي يرتب فصوله وأزمنته تنشق هذه اللحظة، ليترك خواطره تتقاتل مع الوهم وما تبقى من مجازات التذكر والنسيان.))[35]، إن العيش في كنف الماضي ومحاولة إعادة امتلاكه بوساطة الحكي هو البحث عن تاريخ /ذاكرة أفضل، كان يجب أن يكون/تكون، وهي الغاية التي يجري إلى استظهارها النص، بناء على نظام مغاير يفرض تفردا فذا أقرته لغة فلسفية مدهشة تتلفظ بها ذوات النص توجعا وألما.

يرتد نص "بأي ذنب رحلت؟"عن نفسه حتى يغدو فلسفة في إنتاج المفاهيم عن الذاكرة والنسيان،الماضي و الحاضر، الحياة والموت، والنور والعتمة، واللذة والألم..... أو عن ثنائيات ضدية مسكونة بحيوية أساسها تجربة تمرد الإنسان على حياته، وإقباله على البحث عن حقيقة الوجود والعالم والأشياء بعيدا عن الإنسانية، ونسي بأن حقيقة العالم تكتشف بالمصالحة مع الذات، و مصاحبة الآخرين وقبولهم في غيريتهم، وليس في امتلاكهم، كأساس يوصلنا إلى فهم العالم على نحو أفضل، وفهم أنفسنا بسرد أفضل أيضا، وليس بالصراع والهروب الذي يؤدي إلى نسيان إنسانيته، فـ((مأساة الإنسان أنه يتطور في اتجاه خاطئ، يصنع عالما هشا، ثم يحاور المحبة والخير بلسان مشوه.))[36]، فتتمظهر الشخصيات في صورة الضحية، ضحية أخطاء ارتكبتها بقصد أو دون قصد، أو لم ترتكبها، فترجع إلى بداية أقرتها الذاكرة واستوعبتها في حركية تنحني إليها

الشخصيات على نحو خضوع يستكمل صورا أرهقتها وأعيت ماضيها وحاضرها، لعلها تضفر بالمفقود أو تصحح الماضي لتواصل السير في الحاضر، ما جعل علاقة الذاكرة بالنسيان ليست علاقة ضدية وإنما هي علاقة اكتمال وتمازج وتصحيح لتجاوز الأخطاء، هذا الفعل قد يوصل الشخصيات إلى بر الأمان والعيش في حاضر ينزع إلى مراجعة الذات، تمثيلا لهذا يروي السارد عن خالد: ((ازداد ألمه لما غار في التذكر، وثقل المرض يجثم عليه. اعتبر التذكر تكرارا مقيتا، دورانا دونكيشوتيا في وقت ميت، لهذا قرر أن يخطط للقطع معه أن يتصالح مع ذاته كما هي الآن.))[37]، هذا ما قد يوصله إلى النسيان ومحو ذاكرة تنزف ألما وندما وقهرا على ما فرط في ماضي ليس له، وحاضر ينبش في الذاكرة، ويرفض أن يتحقق إلا استرجاعا للماضي في محاولة لتصحيح أخطائه، بغية وضع الذاكرة في إطار من المراجعة وإعادة تصويبها نحو استدراك ما فات.

بهكذا معنى يشرع النص في لملمة شتات شخصياته من بدايات متشظية غارقة في التذكر النافذ في الحاضر، إلى نهايات مفتوحة تنتفض فيها الشخصيات على لحظات ضعفها، ليبرهن النص على قدرة اللغة في خلق حبكة سردية مدهشة، تتسلّل من زمن إلى زمن، وتنتقل من مشهد إلى أخر، في تسلسل درامي يخلق صورا سردية تنتظم وفق برامج الكشف عن دواخل الإنسان، والسعي لمعرفة ما يجهله وهو في مواجهة ذاته وتناقضاته، وفي حركة انسيابية ينجرف إلى النهوض من كبوة الماضي/التذكر ويستوعب قضاياه في عمق التجربة المعاشة التي تؤكد بأن الإنسان وجود متغيّر، ولعل هذا ما جعل براحيل تقرر العودة إلى الموسيقى بعد سنوات التيه والشتات النفسي، يقول السارد: ((...ستعزف راحيل، بعد لحظة، تغني بصوت شامخ يختصر الزمن الذي فات والزمن الذي لم يأت بعده. تمضي إلى شواطئ المعنى حيث تقبع الحقيقة، في خدرها العلويّ، حيث لا يدرك السر إلا من يحلم بالضياء.))[38]، من أجل ذلك تنتفض راحيل ضد النسيان، وتقف صامدة للاعتراف بتاريخها واستكمال صورة الحقيقة التي تقر أن وجود المعنى لا يكتمل إلا بنقيضه، فالنسيان لن يكتمل معناه إلا بممارسة التذكر

والحياة لا يتم معناها إلا بالموت..... في سياقات التضاد الذي يكمل المعنى، ويجعله في حالة من الارتداد المزمن لا استقرار له، ما يدفع بالقارئ إلى تلقي أفق النص ضمن منطقة المابين، مابين التذكر والنسيان، الموت والحياة، النور والظلام .....أي من موضع أن نص "بأي ذنب رحلت؟" هو سؤال متجدّد تعدّدت دلالاته بتعدّد قراءه.

4.خاتمة:

إن ما يجدر ذكره في ختام هذه القراءة هو أن المقاربة التأويلية، مقاربة تنصرف إلى مصاحبة النص في تمايزه واختلافه، والدخول معه في تواصل أساسه الإنصات إلى وقع المعنى القابع في عمقه، من أجل بناء دلالاته فهما وتأويلا، فتتعدد به نصوصا تجدّد أفق القارئ، ويتعدد بها قراءة قد يقبلها النص إلى حين، على نحو أن النص يستعصى على الاحتواء، وامتلاك نص القراءة أو نص التأويل لا يتم إلا بمشاركة النص في غيريته أي في اختلافه.

يعد سبيل المعرفة -التي اقترحها النص واستوعبها القارئ- هو سبيل العيش في حضرة النص والكشف عن دلالات التذكر والنسيان،التي أضحت بناء تكفل به القارئ، وانفتاحا للنص على عوالم الفهم والتأويل، فانسلخ النص نصا قرائيا -لا يتطابق مع الأصل إلا في تمايزه- يوصل بحركاته الحلزونية إلى قلب المعرفة الجاهزة حول التذكر والنسيان واستنباط معرفة أخرى أساسها تجربة سردية لذوات نصية أحيّت ماضيها في حاضرها لاستكمال سيرة حياتها.

*** *** ***

5. الهوامش:

[1] ينظر: عبد الملك مرتاض، التأويلية بين المقدس والمدنس، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المجلد:29، العدد:1، سبتمبر 2000، ص:243.

[2] بول ريكور، من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل)، ترجمة: محمد برادة وحسن بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1،القاهرة، 2003، ص:38.

[3] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، (نحو مشروع عقل تأويلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2008، ص: 11.

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص: 12.

[5] خالد حسنين حسنين، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين، دط، سوريا، دت، ص:6.

[6] الطاهر روانية، النص الأدبي وشعرية المناصفة، مجلة اللغة والأدب، ملتقى علم النص،الجزائر، ع 12، دار الحكمة، ديسمبر،1997، ص:37.

[7] محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، (التشكيل ومسالك التأويل)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، 2012، ص:19.

[8] محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء/المغرب، 2006، ص: 72.

[9] ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، ص:60.

[10] بختي بن عودة، قراءة غير بريئة في التبيين من بلاغة العنوان إلى تواضع التأسيس، مجلة التبيين، ثقافية إبداعية تصدر عن الجاحظية،الجزائر، العدد 9، 1995، ص: 9

[11] ينظر: محمد خرماش، سيميولوجيا القراءة وإشكالية التأويل، مجلة سيميائيات، مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات،جامعة وهران الجزائر،ع2، خريف 2006، ص:84.

[12] ينظر: موريس بلانشو، أسئلة الكتابة، ترجمة: نعيمة بنعبد العالي، وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ط1،الدار البيضاء/ المغرب، 2004، ص:13

[13] المرجع نفسه، ص: ن.

[14] المرجع نفسه، ص:11.

[15] "محمد المعزوز،"بأي ذنب رحلت؟" المركز الثقافي للكتاب، ط1، الدار البيضاء/ المغرب، 2018، ص: 305.

[16] عبد الله لحميمة، الرواية المغاربية المعاصرة، (دراسة تأويلية)، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، دمشق/ سورية، 1014.ص: 83/82.

[17] ينظر: عبد الرحمن محمد العقود، الإبهام في شعر الحداثة (العوامل و المظاهر وآليات التأويل)، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، د ط، الكويت، 2002، ص: 296.

[18] ينظر: المرجع نفسه، ص: ن.

[19] حسن بن حسن النظرية التأويلية عند بول ريكور، دار تنيمل للطباعة والنشر، ط1،مراكش/ المغرب، 1992، ص:47 .

[20] عبد الحميد بوختالة، قراءة في عناوين قصص (اللعنة عليكم جميعا)، ضمن كتاب (النّص والظلال فعاليات الندوة التكريمية حول السعيد بوطاجين)، منشورات المركز الجامعي خنشلة، جوان 2009، ص:167.

[21] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة: الزواوي بغورة، دار الطليعة، ط1، بيروت/لبنان، 2003، ص:240.

[22] حاتم الورفلي، بول ريكور (الهوية والسرد)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع تونس، دط، 2009، ص:70.

[23] أمبرطو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية/ سورية، ط2، 2001، ص: 16.

[24] خالد بالقاسم، مرح القراءة في البحث عن المعنى، وزارة الثقافة والرياضة، دط، قطر، 2020، ص: 68.

[25] محمد المعزوز،"بأي ذنب رحلت؟"، ص:248.

[26] محمد خرماش، سيميولوجيا القراءة وإشكالية التأويل، ص:83.

[27] ينظر: المرجع نفسه، ص: 200.

[28] ينظر: المرجع نفسه، ص: 201.

[29] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، ص: 267.

[30] 'محمد المعزوز،"بأي ذنب رحلت؟"، ص: 148.

[31] المصدر نفسه، ص: 117.

[32] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة، ص: 78.

[33] المرجع نفسه، ص:42.

[34] 'محمد المعزوز، "بأي ذنب رحلت؟"، ص: 141.

[35] المصدر نفسه، ص:10.

[36] المصدر نفسه، ص:116.

[37] المصدر نفسه، ص:119.

[38] المصدر نفسه، ص:311.